دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

| | |
|---|---|
| العنوان: | الفكر السياسي والواقع التاريخي |
| المصدر: | مجلة الآداب |
| الناشر: | جامعة بغداد - كلية الآداب |
| المؤلف الرئيسي: | مشتاق، حازم طالب |
| المجلد/العدد: | مج 1, ع 14 |
| محكمة: | نعم |
| التاريخ الميلادي: | 1938 |
| الصفحات: | 160 - 184 |
| رقم MD: | 262823 |
| نوع المحتوى: | بحوث ومقالات |
| قواعد المعلومات: | HumanIndex, AraBase |
| مواضيع: | الفلاسفة، الفكر السياسي، الوقائع التاريخية، علم السياسة، الفلسفة السياسية، التاريخ القديم |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/262823 |

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

# الفكر السياسي والواقع التاريخي

حازم طالب مشتاق
قسم الفلسفة

لا يمكن للباحث ان يدرس السياسة دراسة منهجية جادة ، الا اذا درس التاريخ كذلك دراسة منهجية جادة • لماذا لا تنفصل دراسة السياسة عن دراسة التاريخ ؟؟ ••• ولماذا تمتحن وتفحص مبادىء ونظريات السياسة في ضوء تجارب ودروس التاريخ ؟؟ ••• لان السياسة ترسم صورة دقيقة متكاملة للتاريخ كما سيكون في المستقبل ، ولان التاريخ يرسم صورة دقيقة متكاملة للسياسة كما كانت في الماضي • سياسة اليوم تمثل تاريخ الغد ، كما ان تاريخ اليوم يمثل سياسة الامس • وترتبط السياسة بالتاريخ ارتباطا عضويا وثيقا ، يشبه ارتباط العلم بالعمل في فلسفة ماركس، او ارتباط الفكر بالتطبيق في فلسفة وليام جيمس ، او ارتباط الصورة بالمادة في فلسفة ارسطو • وكما ان النظرية من غير تجربة تظل جوفاء ، والتجربة من غير نظرية تظل عمياء ، كذلك يستمد الفكر قيمته وحقيقته ومشروعيته من مدى قبوله او صلاحيته للتطبيق ، او من مدى تحققه فعلا تحققا موضوعيا، او من مدى الاثر الذي يتركه او الدور الذي يلعبه في التحولات المصيرية والمواقف الحاسمة والقضايا الكبرى للانسان والمجتمع والتاريخ • وعلى نفس المنوال ، لا يمكن ان توجد الصورة في معزل عن المادة ، او المادة في معزل عن الصورة • ويعتقد الباحث عن تفكير طويل واقتناع عميق ان علاقة جدلية متبادلة متفاعلة متداخلة متفاوتة تجمع السياسة والتاريخ بهذا المعنى ، تلازما وتكاملا • وكما لا يمكن للسياسي أو عالم السياسة ان يستغني عن الالمام بالتاريخ ، كذلك لا يمكن للمؤرخ أو عالم التاريخ

ان يستغنى عن الالمام بالسياسة .

ويجدر بالباحث ان يشدد على الفرق الحقيقى والتباين الجذرى بين السياسى وعالم السياسة . لانهما يختلفان فعلا فى النوع والهدف والاسلوب. الاول يمارس السياسة كعمل ، ويعانيها كتجربة ، ويطلب المصلحة . والثانى يدرس السياسة كعلم ، ويتأملها كنظرية ، ويطلب الحقيقة . ومن الصعب ان يجتمع الامران فى شخص واحد . لان من يعانى ويعمل ليس كمن يدرس ويتأمل . وشتان بين من يطلب الحقيقة ومن يطلب المصلحة . ما اشبه الفرق بين السياسى وعالم السياسة بالفرق بين القائد والمفكر . وما ابعد المفكر الفلسفى عن القائد السياسى . يحصر الاول اهتمامه بالغايات ، ويحدد المبادىء ، ويرسم الصورة الكاملة للمثل الاعلى ، ويتعامل مع الحقائق المطلقة والنظريات المجردة . وينشد مجتمعا كاملا لا يمكن ان يصلح الا للملائكة . ويتطلع الثانى الى الوسائل والاساليب التى تحقق تلك الغايات والمبادىء ، ويترجمها الى مؤسسات واعمال ، ويتعامل مع حقائق التاريخ ، وظروف الواقع ، وطبائع الانسان . وينشد مجتمعا فاضلا يمكن ان يصلح للبشر . عظمة الفيلسوف تقوم على العلم ، وتتجلى فى التفكير اذا كان صحيحا . وتقوم عظمة القائد على العمل ، وتتجلى فى التطبيق اذا كان ناجحا . واذا شاء القدر ان يجتمع الامران فى رجل واحد ، اجتماعا يقوم على التوازن والانسجام والتكامل ، يكون اجتماعهما دليلا على وقوع انعطاف حاسم ، وحدث تاريخى ، وظهور عبقرى متفوق موهوب .

ويميل الباحث الى الاعتقاد ، ان التاريخ لا يخبط خبط عشواء ، ولا يتألف من وقائع متقطعة ، ومحاور جامدة ساكنة ، واحداث مستقلة منفصلة ، تتحقق عفوا أو عبثا أو اعتباطا ، تحققا مشوشا جنونيا ، تتحكم فيها وتسيطر عليها ، دوافع غامضة او اسباب خفية او قوى مجهولة ، هى الحظوظ والصدف والاقدار . بل يمثل وحدة عضوية وحركة دائبة وصيرورة دائمة،

ويتألف من سلسلة من الحلقات المتصلة والمراحل المتعاقبة والظاهـــرات المتكررة ، المتشابهة فى خصائصها المشتركة وخطوطها العريضة على الاقل ، تقود مقدماتها الى نتائجها ، وتؤدى عللها الى معلولاتها ، وتسودها قـوانين عامة ، تخضع لها التجارب ، وتقاس بها الحقائق • وهكذا يكون الحاضـر ابنا للماضى وابا للمستقبل ، فى وقت واحد وعلى حد سواء • ومن هنـا ، يكون العلم بالتاريخ شرطا ضروريا لازما للسياسة علما وعملا • ولا يستطيع المفكر أو القائد ان يفهم ظروف الواقع السياسى او اتجاهات الصـــراع الفكرى او حقائق التطور القومى ، الا اذا فهم التاريخ ، اولا وقبل كـل شىء ، فهما شموليا واحيا صحيحا ، يستخلص النتائج ، ويستخرج الدروس• لان تحليله للحاضر وتخطيطه للمستقبل يتوقفان الى حد كبير عـلى مدى فهمه للماضى•ولان الماضى يحيا ، الى حد ما على الاقل،فى الحاضر، ويمارس تأثيرا حيويا ، قد يكون حاسماً احياناً، فى صياغته وحركته•وفى هذا المعنى يقول ( بسمارك ) ما يفيد : « ان المجانين فقط يتعلمون من تجاربهم • اما العقلاء فيتعلمون من تجارب الاخرين »[1] • وكما يتناقل العرب : « العاقل من اتعظ بغيره » •

ويمكن ان يقال ان التجربة الانسانية تنقسم بوجه عام الى نوعـين : نظرية وعملية • وتنطوى حكمة ( بسمارك ) على قيمة عالية واهمية فائقة • لانه كشف ، اولا ، عن نوعين من التجربة العملية : التجربة المباشـــرة والتجربة غير المباشرة • وقرر ، ثانيا ، أن الثانية افضل من الاولى ، لانهـا اوسع نطاقا واكثر تنوعا • وتلك هى التجربة الشاملة التى يمثلها التاريخ ، لانها لا تقتصر على فرد واحد أو عصر معيّن • بل تمتد الى حضاراته كاملة واجيال متعاقبة وتجارب عديدة وظروف مختلفة •

فى ضوء ما تقدم ، لم يجد الباحث ما يبرر تناوله للمفكر ابن الطقطقى وكتابه ( الفخرى )[2] ، فى معزل عن الواقع السياسى القائم فى زمانـه ، والوضع التاريخى السائدة فى عصره • ويلوح للباحث بان الفكر الذى قدمه

ابن الطقطقى فى كتابه (الفخرى) ، لايمكن اطلاقا أن يفهم فهما دقيقا صائبا، الا فى ضوء الواقع السياسى الذى احاطه وعاصره ، والوضع التاريخى الذى عاناه وعاشه . ذلك ان تاريخ الافكار لايمكن ان يكون موضوعا جادا للبحث، اذا عزل عن تاريخ الاحداث ، وظروف الواقع ، وحقائق المجتمع ، وصراع المصالح والمبادىء والارادات . لان هذين النوعين المتلازمين والمتفاعلين من التطور الانسانى ، لا يقوم ولا يتحق احدهما فى معزل عن الاخـــر . لانهمـــا يرتبطان بعلاقة جدلية . ولان الفلسفة السياسية ، من الوجهة الموضوعيـة ، لا تتولد من العدم ، ولا تصدر من لاشىء ، ولا تظهر الى الوجود مـــن الفراغ ، بقدرة قادر وسحر ساحر . ولكنها معادلة تاريخية نسبية ، تشمل الانسان والزمان والمكان . ومن هنا ، تختلف الفلسفة السياسية من جيـل الى جيل ومن عصر الى عصر فى الشعب الواحد ، كما تختلف من شعب الى شعب ومن مجتمع الى مجتمع فى العصر المشترك والزمن الواحد . ويمكن للباحث ان يشبه العلاقة بين الفكر السياسى والواقع التاريخى بالعلاقة بين النبتة والتربة أو بين الماء والوعاء . وقد مال الباحث ، للاسباب المتقدمـــة السابقة المذكورة ، الى الرأى القائل بان الفكر السياسى يستمد دوافعـــه الحقيقية وتطلعاته الاصيلة وجذوره العميقة من الواقع التاريخى الذى يمثل اطارا عاما واساسا عريضا ، للمشاكل والحلول ، والاسئلة والاجوبـــة ، وميدانا موضوعيا للصراع الفكرى الملازم للوجود الانسانى ، يمدّه ويسلحه بالقيم والتقاليد والسوابق والمبررات والمبادىء والخطط والاهداف والمثل العليا . ولا يمكن للفلسفة السياسية ان تعنى شيئا على الاطلاق ، اذا عزلت عن بيئتها البشرية والاجتماعية والاقتصادية ، وخلفيتها الثقافية والحضارية والتاريخية . لانها لا تكون ، ولا يمكن ان تكون ، حينـذاك ، الا تصورا نظريا ، وتجريدا عقليا ، وتعسفا فكريا ، ومزاجا فرديا تافها باهتا هـــازلا عابثاً ، تتقاذفه الاهواء الجامحة والامواج المتلاطمة .

وقد اختلف المفكرون والفلاسفة والعلماء فى تعريفهم للانســان .

وهكذا قرر علماء المنطق انه حيوان عاقل ، كما قرر علماء الانثروبولوجيا انه حيوان منتصب القامة ، يمشى على قدمين ، ويستخدم اليدين ، ويصنع الادوات • وحدده افلاطون وارسطو بانه حيوان سياسى ، ومخلوق اجتماعى ، وكائن مدنى بالطبع • ورأى كارل ماركس انه حيوان اقتصادى• ولكن الباحث يعتقد ان الانسان لا يحيا لكى يأكل ، بل يأكل لكى يحيا ، وان تحقيق المطالب الانسانية يستلزم اولا توفير الحد الادنى على الاقل من الحاجات الحيوانية والضرورات المادية • وذهب المفكر الفرنسى هنرى برجسون الى التأكيد بأنه حيوان ضاحك • وافاد سيجموند فرويد انه حيوان جنسي • ويلاحظ الباحث ان التعاريف المذكورة كلها تتفق فى معنى حيوانية الانسان ، وتختلف فى معنى انسانية الانسان • يشترك الانسان مع الحيوان فى وظائف معينة وخصائص محددة : لانه يأكل ويشرب وينام ويولد ويموت تماما مثل الحيوان • فما الذى يميز الانسان عن الحيوان ؟؟ •• ما الذى يجعل الانسان نوعا مستقلا مختلفا عن الانواع الاخرى من الحيوانات ؟؟ ويقرر الباحث فى عجالة اضطرارية ان الحقيقة الجزئية لا يمكن ان تكون صحيحة الا جزئيا ، وان الحقيقة الوحيدة التى يمكن ان تكون صحيحة كليا هى الحقيقة الكلية الجامعة • ويميل الباحث الى تعريف آخر للانسان ، قد يكون جزئيا ايضا ، ولكنه اشمل واصح وادق ، على كل حال ، كما يعتقد • ويفيد : « الانسان حيوان ذو تاريخ »[٣] • ويعنى التعريف « ان كل جيل من البشر يعرب تجارب الجيل الذى سبقه ويستفيد منها ••• وانه بهذه الميزة ـ وحدها ـ يتطور •• وعلى العكس من ذلك الحيوان ••• فالاسد أو القط او الكلب الذى كان يعيش فى الارض منذ الف سنة لا يمكن ان يختلف عن سلالته التى نراها اليوم •• فى الصفات والطباع ونوع الحياة »[٤] • ويستطيع الانسان اليوم ان يصطاد الفأر الذى يجده فى بيته تماما كما كان يفعل قبل الف سنة •

ولا يحتاج الى اكثر من مصيدة وقطعة من الجبن • ولو وجد عشرة فيران في بيته لاستطاع أن يتصيدها « واحدا بعد آخر ، يوما بعد يوم ، بنفس المصيدة وقطعة الجبن ••• ذلك ان الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة ••• »[٥] • ويختلف الانسان في ذلك عن الحيوان • لانه « يعرف ما أصاب افلاسه بالامس »[٦] • وهكذا يستطيع ان يستخلص الدروس المناسبة والنتائج الضرورية من التجارب الانسانية والاحداث التاريخية • وكل جيل لاحق لا يبدأ من نقطة الصفر • لانه لو فعل لما تقدم • بل يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق • وهكذا يتحقق التقدم ، شيئاً فشيئاً ، جيلاً بعد جيل • ومن الواضح، ان التاريخ لايمثل الفرق بين الانسان والحيوان فقط ، بل بين الانسان الواعي والانسان غير الواعي أيضا • « الانسان غير الواعي لا يرى الا قطعة الجبن ••• ولكن الانسان الواعي يرى قطعة الجبن ، ويرى المصيدة »[٧] •

ويعتقد الباحث ، رأيا واجتهادا ، في ضوء ما تقدم ، ان تاريخ يمثل كذلك الفرق بين الارتقاء الانساني الاجتماعي والانحطاط الانساني الاجتماعي ، وبين الانسان المتمدن والانسان المتخلف ، وبين الامة الراقية، وهي امة توجد بالفعل وجودا حقيقيا ، والامة البدائية وهي امة مجازا وتوجد بالقوة فحسب • الامة الراقية هي امة متحدة في السواعد والقلوب تحركها ارادة عامة مشتركة واحدة • والامة البدائية هي قطعان بشرية هائمة حائرة تائهة ، لا تربطها ارادة واحدة ، ولا تجمعها حياة مشتركة • ويظهر هذا الفرق واضحاً ، ماثلاً للعقول ، باديا للعيان، في الدولة والعائلة والاشكال العمرانية للحضارة الانسانية •

هل تخطط الدولة للاجيال العديدة المتلاحقة والمراحل الطويلة المتعاقبة ، أم انها تفتقر الى الغاية الواضحة والارادة الفاعلة والمثل الاعلى ، تتحامل على نفسها في الوجود ، من يوم الى يوم ، ومن يد الى يد ؟؟ •••

هل يهتم الاب بنفسه فحسب عملا بالحكمة الطائشة الحمقاء : « ليكن من بعدي الطوفان ... اذا مت ظمآناً فلا نزل القطر » ، تناسيا انانيا أو نسياناً جاهلاً للحكمة العربية الخالدة المأثورة : « زرعوا فأكلنا ، ونزرع فيأكلون » ، ام انه يحرص على اولاده أيضا ، فضلا عن احفاده ، بل ويقدمهم على نفسه ؟؟ ...

هل تشيد الامة ما يخلدها من الابنية الضخمة القوية والانصاب الشامخة الرائعة ، ويحيا الى مئات عديدة من السنين ، ويمكن أن يعتبر تعبيرا حقيقيا أميناً عن نفسيتها الجميلة القوية ، ودليلاً واضحا باقياً على ايمانها العميق بالمستقبل ، وحبها الغامر للحياة ، وارادتها التى لا تقهر وتشبه القضاء والقدر ، ونظرتها الكلية الى الكون والتاريخ والانسان والمجتمع ، ام انها تكتفي بالبكاء على الاطلال والخرائب ، وتجتر الماضى العقيم ، وتذرف الدمع السخين ، وتندب حظها العاثر وطالعها السيء ، وتقنع بالابنية المتداعية والانصاب المهزوزة التى تفتقر الى الذوق والجمال ، وتعجز عن قهر الموت بارادة الحياة ، وتقف كسيرة ، مهيضة الجناح ، حاسرة الرأس ، رمزاً للقبح والفشل والضياع ، وتمكث فى الوجود زمنا قصيرا قد لا يتجاوز عمر الفرد الواحد ، ثم تسقط وتزول الى الابد غير مأسوف عليها ؟؟ ... تلك هي صيغ تفصيلية محددة للمسألة الاساسية والقضية الجوهرية : الشعور الواعي للانسان بالتاريخ وجوداً وعدماً ، ومدى ذلك الشعور ، ودرجاته المتفاوتة . هل يشعر الانسان اطلاقاً شعورا واعيا بالتاريخ أم لا ؟؟ ... هل يشعر بالتاريخ شعوراً واضحا محدداً ام غامضاً مائعاً ؟؟... شعورا قويا فاعلا ام ضعيفا متخاذلا ؟؟ ....

انصرف الفكر الى مهمة التفسير فقط زمناً طويلاً ، وحاول جاهداً ان يجد الاجوبة الصحيحة للاسئلة المطروحة : لماذا ؟؟ وكيف ؟؟ . وقد أخذ على عاتقه الآن مهمة حيوية أخرى : هي مهمة التغيير . وهكذا

اجتمعت الحاجة الى العلم بالحاجة الى العمل .

وقد يمكن للفكر ان يسبق الواقع ، وأن يتجاوزه فى وعيه للاحداث، وفى تصوره للاحتمالات ، وفى وصوله الى حقيقة تقريبية ودرجة نسبية من المعرفة القبليةالفاعلة النافعة الايجابية. ولكنه لا يستطيع أن يحقق تغييرا جذريا للواقع ، لا لشيء أو سبب الا لانه يمثل تمردا اخلاقيا ، او اتجاها تبشيرياً ، أو موقفا نظريا . لا يمكن للواقع أن يتغير الا اذا كان مهيئاً وقابلاً للتغيير ، والا اذا توفرت الفرص السانحة والظروف الملائمة ، ونضجت الشروط الذاتية والموضوعية . والا تحولت ارادة التغير من علم عاقل الى حلم جاهل .

ويمكن للباحث انيضرب أمثلة تاريخية عديدة على الارتباط العضوى الوثيق بين الفكر السياسى والواقع التاريخي . لولا انتصار الطبقة البورجوازية على الطبقة الارستقراطية الاقطاعية ، وقيام الثورة الصناعية في اوربا الغربية ، لما ظهرت الفلسفة الاشتراكية ظهوراً علميا جادا فاعلا . ولولا الصراع على السلطة الذى دار فى اوائل العصر الاموى ، والازدواج الذى رافقها وسكب وقوداً على الصراع الذى ازداد تعقيداً واستفحالاً بين الخلفاء الضعفاء والسلاطين أو الامراء الاقوياء فى اواخر العصر العباسى ، لما ظهرت نظرية متكاملة للخلافة او الامامة فى الفقه الاسلامي . ولولا زوال الخلافة زوالا نهائيا ، وانقراضها الى الابد ، فى اعقاب سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ١٢٥٨ م . ، لما انصرف ( ابن الطقطقى ) بوجه عام و ( ابن خلدون ) بوجه خاص، الى الحديث عنالملوكية والسلطنة والامارة حصرا وتحديدا واقتصارا . ويلاحظ الباحث ، ان الفكر السياسى اطلاقا ، اذا واجه أزمة موضوعية أو مشكلة حقيقية ، قائمة فعلا فىالواقع التاريخي، وكان فكرا جادا ايجابيا مسؤولا ، سارع الى الاهتمام بها والتصدى لها .

وقد ربط باحثون اوربيون عديدون بين الفكر السياسى والواقع

التاريخي • وقد نسج الباحث على منوالهم ، وسار على خطاهم • وحاول جاهداً ان يحقق مهمة واحدة في هذا الموضوع ، وهي : الخروج من الظلام الى النور ، ومن الفوضى الى النظام ، ومن التعميم الى التخصيص ، ومن المجهول الى المعلوم ، ومن التعقيد الى التبسيط ، ومن الغموض الى الوضوح •

خذ ، مثلاً ، السير ارنست باركر ، الاستاذ في جامعة اكسفورد ، تجده يقرر في كتابه ( تاريخ الفلسفة السياسية اليونانية ) : « لا يمكن للفلسفة السياسية ان تنعزل عن بيئتها التاريخية • ومن الواضح ان معظم الاعمال الخالدة العظيمة التي خلفها المفكرون السياسيون ، قد كتبت في ضوء الظروف التي احاطتهم ، والاوضاع التي لازمتهم • ولم يشذ عن ذلك ماكيافيللي في كتابه ( الامير ) ، وهوبز في كتابه ( ليفايثان ) ، وروسو في كتابه ( العقد الاجتماعي ) • وقد ظهر هذا الاتجاه قويا في افلاطون وأرسطو • لأنهما اعتبرا السياسة علماً عملياً وعلاجاً • وقدما للعالم فلسفة يونانية خالصة ، صاغها الواقع اليوناني الذي مدت فيه جذورها واغصانها ، واستمدت منه قيمها وحلولها • ولم تظهر فلسفة [ سياسية ] اخرى مختلفة [ في العالم اليوناني القديم ] ، الا عندما ذابت دولة المدينة في الامبراطورية المقدونية ، وظهرت تجربة جديدة ، اوحت للكلبيين والرواقيين فلسفة سياسية جديدة »[٨] • ويمكن للباحث ان يوضح ما تقدم كمايلي • ينقسم التاريخ القديم للعالم اليوناني بوجه عام الى دورين كبيرين[٩]• ويبدأ الدور الاول من موعد انعقاد اول دورة للألعاب الاولمبية في العالم اطلاقاً سنة ٧٧٦ ق•م• ويمتد الى الفتوحات التي حققها الاسكندر المقدوني المتوفى سنة ٣٢٣ ق •م• ويسمى بالعصر الهيللينيي•ويشمل عهد بركليس الذي يوصف بالعصر الذهبي في آثينا • وقد شهد ازدهارا رائعا في الحضارة والتمدن والعمران ، وتفتحا مذهلا في العبقريات والمواهب ، وازدحم ازدحاما عجيبا

بالعظماء الخالدين من فلاسفة وفنانين وعلماء وشعراء وادباء ومؤرخين وقادة سياسيين وعسكريين • وحقق تطورا مثيرا ونصرا باهرا للارتقاء الانسانى ماديا ومعنويا • ويتمثل الطابع الغالب والشكل السائد للتنظيم السياسى فى هذا العصر بدولة المدينة • وتتألف من مدينة واحدة هى فى الواقع دولة مستقلة كاملة • وتقوم على رقعة صغيرة من الارض • وتضم عددا قليلا ـ نسبيا ـ من المواطنين • وقد اتخذها افلاطون وارسطو ، محورا للبحث ، وموضوعا للتأمل ، ومركزا للثقل ، فى التصورات الفلسفية والنظريات السياسية التى تركاها للانسانية جمعاء • ولكن العالم اليونانى القديم لم يستطع أن يحقق وحدته السياسية فى دولة قومية واحدة ، على الرغم من وحدته فى اللغة ، مع اختلاف اللهجات ، وفى التقاليد الاجتماعية والعقائد الدينية والاتجاهات الفكرية • ولم تخل الساحة اليونانية ـ احيانا على الاقل ـ من محاولات تهدف الى تأليف اتحادات فيديرالية وجامعة يونانية للمدن المستقلة والمتحالفة • ولكنها تبددت ، كلها ، مثل صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد • ومنيت بالفشل الذريع • وقد تعاونت المدن اليونانية المستقلة ، فى حالات معينة وبدرجات متفاوتة ، تعاونا اضطراريا محدودا ، دفعا للخطر الخارجى والعدو الاجنبى ، كما حدث فعلا ـ مثلا ـ فى مواجهتها للتهديد العسكرى الفارسى • فما ان زال الخطر المباشر ، وتراجع العدو المشترك ، حتى عادت الانانيات الطائشة والعصبيات الحمقاء الى عبثها المزمن بالمصائر والمقدرات • وافلحت فى الابقاء على اليونانيين امة مفتتة مشتتة ، اصدرت هى على نفسها حكم الموت قبل أن يصدره عدوها عليها ، وماتت انتحارا وليس قتلا أو استشهادا • وقد شهد هذا العصر ، تنافسا حادا عنيفا ، وصراعا طاحنا دمويا ، بين المدن اليونانية المستقلة ، وابرزها آثينا واسبارطا وثيبيس • وفرضت كل منها سيطرتها وسيادتها على المسرح السياسى لفترة من الزمن • ولكن ايا منها لم يدم طويلا • وتلك

هى الصورة الحقيقية للواقع التاريخى الذى ترك اثره واضحا ولعب دوره كاملا ، فى النسيج العضوى الحى للفكر السياسى كما قدمه افلاطون وأرسطو فى العصر الهيللينى •

ويسمى الدور الثانى للتاريخ القديم للعالم اليونانى بالعصر الهيللينستي وقد لحق الفتوحات حققها الاسكندر المقدونى المتوفى سنة ٣٢٣ ق • م • وامتاز هذا العصر بامتداد الحضارة اليونانية الى ارجاء عديدة من العالم المتمدن المعروف حينذاك ، وتأثرها بالروح الدينية الشرقية • كما امتاز بزوال الاستقلال السياسى الذى مارسته دولة المدينة ، وذوبانها فى امبراطورية عالمية واسعة ، وانهيار القيم التقليدية فى الفكر والاخلاق ، والاشكال المألوفة للتنظيم السياسى ، فى هزة تاريخية عميقة وحاسمة • قامت امبراطورية الاسكندر • واقتسمها قادته العسكريون بعد وفاته • ولكن دولة المدينة لم تعد الى الوجود على الاطلاق ، وزالت مرة واحدة والى الابد • وتحولت تلك الامبراطورية ، حتى بعد انقسامها ، الى ممالك كبيرة • وهكذا توفر الشرط الموضوعى والاساس الواقعى للدعوة الى المواطنية العالمية والفكرة الفردية • ومن هنا ، ولدت النزعة الشمولية والمدرسة الانسانية فى الفلسفة السياسية اليونانية ، بدلا من المدرسة الاجتماعية التى سادت فى العصر الهيللينى ، وهى مدرسة يونانية خالصة ، قدمت المجتمع على الفرد فى المرتبة والقيمة والاهمية ، ولم تعر اهتماما للنساء والعبيد والاجانب الغرباء • وتلك هى الصورة الحقيقية للواقع التاريخى الذى ترك اثره واضحا ، ولعب دوره كاملا ، فى النسيج العضوى الحى للفكر السياسى كما قدمه الكلبيون والرواقيون فى العصر الهيللينستي

وقد اعرب السير هاملتون جيب ، الاستاذ بجامعتى اكسفورد فى بريطانيا وهارفارد فى امريكا ، عن رأى مماثل فى كتابه ( دراسات فى المدنية الاسلامية ) بقوله : « ونأتى الآن الى الماوردى • ومن الواضح ان

كتابه [ الاحكام السلطانية والولايات الدينية ] يقوم على اساس أشعرى . فهل يمكن قبوله باعتباره عرضا محددا ونهائيا للفكر الاشعرى السياسى ؟؟ .. »[١٠] . ويجيب جيب بالنفى ، ويقرر العكس . ثم يبين الاسباب كما يراها ، قائلا : ان الكتاب المذكور للماوردى « ليس عرضا موضوعيا يتناول نظرية قائمة . بل يمكن أن يعتبر دفاعا أو تبريرا أو تكييفا ، اوحته الظروف السائدة فى زمنه ، وصاغته الحجج التى ساقها الماوردى فى محاولته الهادئة الى تطويع النظرية الاشعرية للظروف المؤسفة السائدة حينذاك . ومن المعلوم ان الماوردى قد فرغ من تأليف كتابه [ المذكور ] فى العصر البويهى[١١] . وقد اقدم على اتخاذ الخطوة الاولى فى الطريق الطويل المنحدر الذى قاد فى النهاية الى انهيار تلك النظرية انهيارا كليا كاملا . وتعرض البنيان السياسى للاسلام فى وقت لاحق الى هزات حادة وتبدلات عنيفة ، ساهمت فى ازدياد سرعة ذلك الانهيار ، وارغمت خلفاء الماوردى [ من الفقهاء ] على الذهاب بعيدا فى تقديم التنازلات [ للواقع التاريخى والسياسى من المثل الاعلى والشرع الدينى ] »[١٢] . ويستطرد قائلا ، بنفس المعنى ، فى بحث آخر من كتابه المذكور : « ومن هنا ، يثبت ان النظريات السياسية للفخهاء السنيين ـ التى تحقق تكاملها ـ لم تشتق اشتقاقا فكريا من الجذور الاصيلة والمصادر الاساسية للاسلام [ القرآن والسنة والحديث ] ، على عكس من نظريات الشيعة والخوارج . ولكنها نشأت من تفاسير للمصادر والجذور المذكورة فى ضوء التطورات السياسية اللاحقة .... وقد ترك كل جيل تقريبا ، على التعاقب ، طابعه الخاص فى الفكر السياسى ، وساهم فى تطويره تطويرا مباشرا . وهكذا طوعت النظريات السياسية للسوابق الجديدة مع ظهورها فى كل جيل ، واحدا بعد آخر . ويستدل الباحث استدلالا واضحا ، على الارتباط العضوى الوثيق بين الفكر السياسى للمذهب السنى ، والواقع التاريخى للمجتمع

الاسلامى ، من امتناع الفقهاء السنيين عن اصدار الاحكام على القضايا والحالات التى لم تنشأ بعد فى التطبيق بالفعل ، اذا تركنا جانبا العموميات الغامضة ، وبعض النتائج المستخلصة من المسائل الوجدانية ... »[٣١] .

ويقرر جيب اخيرا فى موضع لاحق من كتابه : « ان الفكر السياسى للمذهب السنى ، ليس فى الواقع ، الا عقلنة وفقهنة [ اذا جاز هذا التعبير ] ، الواقع التاريخى للنظام الاسلامى . وما كان يمكن ان تظهر نظرية سنية سياسية الى الوجود ، لولا توفر السوابق . وليس هذا التراث الضخم والنسيج المهيب من التفاسير والآراء التى تناولت الجذور والمصادر ، الا مجرد تبرير لاحق للسوابق التى قررها الاجماع »[١٤] .

ويربط جورج سابين ، استاذ الفلسفة بجامعة كورنيل فى الولايات المتحدة الامريكية ، بين الفكر السياسى والواقع التاريخى ، فى كتابه المعنون ( تاريخ الفلسفة السياسية ) . ويتحدث عن افلاطون فى « جمهوريته » . فيقول : « وقد هاجم افلاطون ما لاحظه فى السياسيين من جهل .. واعتبره لعنة خاصة تتعرض لها ، وتصاب بها ، الانظمة الديموقراطية . ولاحظ ان الحرفيين يعرفون حرفهم معرفة دقيقة كاملة . ولكن السياسيين لا يعرفون شيئا على الاطلاق ، اللهم الا فن التملق للجماهير .... وقد كتب جمهوريته فى جيل لاحق للنتائج المدمرة التى سببتها الحروب البيلوبونيزية[١٥] . وكان لا يزال قريبا منها ، متأثرا بها . وهى فترة من الزمن ، دفعت الاثينيين ، على اغلب الظن واقوى الاحتمال ، الى الشعور بالاعجاب فى مواجهة اسبارطا ونظامها الصارم وضبطها المتين ونصرها الباهر ... »[١٦] . ومن هنا ، جاء تفضيل افلاطون للعسكرية الاسبارطية على الديموقراطية الاثينية ، كما يعتقد سابين . ويجد سابين تأكيدا لما تقدم ، فى حقيقة تاريخية واقعة ، وهى ان افلاطون قد اظهر ، فى اواخر حياته ، عندما كتب ( القوانين ) أو ( النواميس ) ، درجة اكبر من التحفظ ، وميلا اقوى

الى النقد الحاد ، فى موقفه من اسبارطا والمثل الاعلى الذى ضربته ، يختلف تماما عن موقفه من اسبارطا ، فى اوائل حياته ، عندما كتب (الجمهورية)[١٧] . ومن المعتقد ، ان مرور الزمن واختفاء الضغوط الذاتية والموضوعية ، وزوال الاحقاد والضغائن ، وظهور الحقائق ، والهدوء التدريجى للاعصاب والنفوس ، واستعادة العقول للتوازن ، هى كلها ـ مع سواها ـ من جملة الاسباب التى دفعت افلاطون الى موقفه الجديد المتأخر . ويعتقد سابين ، فضلا عن ذلك ، ان اصرار افلاطون على الاحتراف والتدريب فى « جمهوريته » ، وتأكيده على تقسيم الاعمال وتوزيع الاختصاصات ، ويقينه الراسخ بأن الدولة المثالية لا يمكن أن تقوم الا اذا حكم الفلاسفة أو تفلسف الحكام ، تعود كلها الى اسباب موضوعية وظروف تاريخية[١٨] . وقد وجد سابين : « ان فكرة الاحتراف العلمي والتدريب المهنى ، كانت قد بدأت فى الظهور ، للمرة الاولى فى اليونان ، على ايام افلاطون[١٩] .. وقبل سنوات قليلة من تأسيسه ( للاكاديميا ) ، استطاع جندى محترف مثل افيكراتس أن يدهش العالم بالانتصارات التى احرزها جنود مدربون تدريبا فنيا عاليا ، ومسلحون باسلحة خفيفة ، حتى ضد مشاة اسبارطا المسلحين باسلحة ثقيلة . ويمكن أن يقال ان احتراف الخطابة قد بدأ فى نفس الوقت تقريبا مع ظهور مدرسة ايسوكراتيس »[٢٠] . وهكذا يعتقد سابين ان ما فعله افلاطون فى جمهوريته بالنسبة الى هذا الموضوع ، لا يتجاوز مجرد توليه مهمة الصياغة العقلية للفكرة الجديدة ، الطريقة العود ، التى كانت قد اخذت فى النمو والانتشار بالفعل فى واقعه وعصره وعالمه ، واخراجها من الكمون الى الظهور ، ونقلها من الغموض الى الوضوح .

ويرسم سابين صورة دقيقة وامينة وكالحة ورهيبة ، للاوضاع السياسية والظروف التاريخية التى عاصرها ماكيافيللي ، وعاشها فى القرن

السادس عشر الميلادى ، وعانتها اوربا الغربية بوجه عام ، وايطاليا بوجه خاص ، وتركت ادق البصمات واوضح الآثار فى كتابه ( الامير )[٢١] • وقد امتازت هذه الفترة ، بظهور الطبقات البورجوازية ، وانهيار الانظمة الاقطاعية ، وقيام الملكيات المطلقة والحكومات الاستبدادية • ويقرر ساباين : « ان هذه التغيرات الجذرية التى اجتاحت القارة الاوربية ، قد احدثت تغيراً مماثلا فى الفكر السياسى • وقد لخص ماكيا فيللي هذا التغير فى شخصيته الصعبة ، المتعددة الجوانب ، التى جمعت المتناقضات »[٢٢] • ويذهب ساباين الى التأكيد ان ماكيا فيللي « لو كان قد كتب فى زمان آخر وفى مكان آخر ، لكان مفهومه للسياسة قد اختلف تماما • »[٢٣] وقد ادرك ماكيا فيللي ، بوعى الحكيم وتجرد العالم ، ما كانت تعانيه ايطاليا حينذاك ، فى وجودها القومى وجسمها الاجتماعى ، من تفسخ وانحلال فى القيم والمؤسسات ، ومن فساد سياسى وانحطاط اخلاقي • ونجح فى تشخيص الداء وتقديم الدواء • ولاحظ ان القيم التقليدية والمؤسسات القديمة التى عرفتها العصور الوسيطة ، قد ماتت ودفنت الى الابد • ولم تعد الكنيسة أو الامبراطورية تثير فى النفوس ما كانت لا تزال تثيره من ولاء عميق وحماس دافق والتزام مطلق فى عصر دانتى • ومن هنا ، قرر ساباين ان ماكيا فيللي يعتبر « مفكرا سياسيا للانسان الذى لا يعتنق مذهبا ، ولا يتبع شيئا أو احدا ، ولا يحده نظام أو يقيده قانون ، ومفكرا سياسيا للمجتمع الذى يقف فيه الانسان وحيدا منفردا ، لا يملك من الدوافع والمصالح الا ما يستمده من الانانية الذاتية والرغبة الشخصية • ويمثل ماكيا فيللى ، فى ذلك كله ، مرحلة من المراحل التى تسود ، بدرجات متفاوتة وفى فترات معينة ، جميع المجتمعات العصرية فى تطورها الطويل الحافل • ولكنه يمثل تلك المرحلة فى صيغتها الجامحة المتطرفة كما عرفتها ايطاليا فى القرن السادس عشر • »[٢٤] •

ويميل ساباين فى حديثه عن الفيلسوف الالمانى ( هيجل ) الى التأكيد ان فلسفة هذا الاخير فى التاريخ ، التى ظهرت الى الوجود فى القرن التاسع عشر الميلادى ، لم تنشأ كليا من التأمل النظرى والجهد العقلانى • بل يعتقد انها وليدة عصرها وبنت زمنها • ويفسّر ذلك بقوله : « ان الثورة الفرنسية قد رسمت خطا حاسما فى التاريخ الاوربى ، وانها تعتبر حدا فاصلا بين فترتين من الوجهتين السياسية والفكرية • »[٢٥] • ويرى ساباين ان الثورة الفرنسية قد احدثت ردة عدائية مضادة حتى فى عقول رجال كانوا الى الامس القريب حينذاك من اصلب العاطفين عليها ، والداعين لها ، والمؤمنين بها • ويرجع ذلك الى ممارستها الدائمة والواسعة للعنف والارهاب ، فضلا عن الهجمة الامبريالية الشرسة التى شنتها فرنسا على القوميات الصغيرة والامم الضعيفة بأسم الثورة وبأسم حقوق الانسان • وقد خلق هذا الوضع ، حرصا شديدا على التقاليد القومية ، وتمسكا فائقا بالقيم الوراثية ، التى داسها الثوار بالنعال • كما ان الحروب النابليونية قد تركت الانظمة الدستورية للدول الاوربية اكواما من الخرائب والانقاض • وقد ساد الاعتقاد ان مهمة صعبة وحيوية وخطيرة ، مثل مهمة اشاعة الاستقرار واعادة البناء ، لا يمكن أن تتحقق أو تتم على اساس نظرى مجرد مائع مثل « حقوق الانسان » ، التى ثبت انها عامل هام من عوامل الهدم والتخريب • هكذا نظر هيجل ، بوجه عام ، الى الثورة الفرنسية ، والنزعة الفردية الغالبة على فلسفتها السياسية • وهى نظرة وافقه عليها ، وشاركه فيها ، عدد غير قليل من الفلاسفة حينذاك • وقد طرحت مهمة اعادة البناء القومى نفسها على هذا الفيلسوف ، وامثاله فى عصره ، بأنها مهمة اعادة بناء الاستمرارية التاريخية والحضارية للمؤسسات القومية ، واستمداد الوحى للتماسك القومى من مصادره الاصيلة فى الماضى القريب والبعيد ، وتأكيد اولوية الامة على الفرد ، وارتباط الفرد ارتباطا عضويا وثيقا واعيا بتراثه الحضارى

وتاريخه القومى والسياسى والثقافى • وليس من الصحيح أن يقال ان هذا الدافع فى هيجل قد كان دافعا رجعيا فحسب ، على الرغم من الدور الرجعي الذي لعبه هذا الدافع ، على الاغلب ، في الموجة الرومانسية التى اعقبت الثورة الفرنسية • لقد اختار هيجل هدفا فكريا قومياً معادياً للنتائج السلبية والعواقب الوخيمة التي ادت اليها ، وتمخضت عنها ، الثورة الفرنسية والامبراطورية النابليونية • ولكنه انتهج اسلوبا جدليا تقدميا ، يمكن أن يعتبر رمزا للثورة والتمرد ، وعنوانا للبناء والارتقاء[٢٦] • ومن هنا ، كرّس هيجل عملية الهدم التى تمارسها القوى الاجتماعية الحية ، والطاقات القومية النامية ، للمؤسسات المهزوزة ، والقيم البالية ، التى استنفذت اغراضها ، وفقدت مبررات وجودها ، واصبحت عبئا ثقيلا يشل ويعطل ارادة الحياة • ولكنه رحب ايضا ترحيبا حارا ، من جهة اخرى ، بعملية اعادة الاستقرار التى تمارسها القوى الخلاقة المبدعة للامة جمعاء • وقد استطاع هيجل ان يعزل القومية فكرا وعملا عن المبادىء الراديكالية والكوزموبوليتية والفردية التى اتسمت بها ونشأت عليها فى عصر الثورة الفرنسية • ومن هنا ، يعتبر هيجل نموذجا صحيحا وتعبيرا امينا ومثالا حقيقيا ، للقومية الالمانية فى تلك المرحلة التاريخية من تطورها ، وللقوى المحافظة والتقليدية التى حققت الوحدة القومية الالمانية • وفى ضوء ما تقدم ، يقرر ساباين « ان الاهتمام الذى ابداه هيجل بالقومية لا يعود الى اسلوبه الجدلى ومنهجه الديالكتيكى • بل يعود الى نفس المصالح التى عملت على تحويل المواطنين الالمان لآخرين الى قوميين مستعصبين ، ومن بينهم رجال خالفوه فى فلسفته الاساسية العامة »[٢٧] • ومن الواضح ، ان هيجل قد استمد فكرة السياسى من الواقع التاريخى للشعب الالمانى فى مرحلة معينة من تطوره الطبيعى •

وقد مال مفكرون عديدون الى تصورات معينة ومختلفة ، فى التفسير والتغير ، للماضى والحاضر والمستقبل ، تتناول الامم والدول والحضارات ،

على اساس فلسفات جديدة للتاريخ ، كما فعل ابن خلدون فى « المقدمة » ، وهيجل فى « فلسفة التاريخ » ، وماركس فى « المادية التاريخيـــة » ، وشبنجلر فى «سقوط الحضارة الغربية» ، وتوينبي في « مقدمة في تاريـخ العالم » .

ويعتقد الباحث اعتقادا مدروسا تولد من تفكير طويل ، ان الفلسـفة السياسية تنشأ من حقيقة تاريخية واحدة هى : الصراع . يوجد الصـراع حيث يوجد الانسان . وقد ظهر الصراع الى الوجود مع ظهور الانسان على الارض . ودار الصراع المرير فى كل زمان ومكان ، فى كل امة وفـــى كل حضارة ، ولا يزال دائرا ، بين رواسب وتقاليد الماضى ، وقضايا ومشاكل الحاضر ، وتطلعات واهداف المستقبل . واخذ اشكالا معينة ، ابرزهـــا : صراع الانسان مع نفسه ، وصراع الانسان مع واقعه وعصره ومجتمعـــه وعالمه ، وصراع الانسان مع الانسان .

ويمثل التاريخ سجلا ابديا للصراع المرير المحتوم ، الملازم للاجتماع الانسانى وجودا وعدما ، والدائر بين النقيض والنقيض ، بـين الحـــق والباطل ، بين القديم والجديد ، بين ما ينمو وما يذبل ، بين ما يولـد الى الحياة وما يتقهقر الى الموت .

وقد شهد العالم فى تاريخه الطويل الحافل ، ولا يزال يشهد ، انواعا معقدة متعددة من الصراع . شهد صراعا دينيا : بين المؤمنين والكفرة ، أو بين دين ودين ، او طائفة وطائفة . وصراعا اجتماعيا : بين الفقراء والاغنياء ، او بين طبقة حاكمة وطبقة محكومة ، او بين الحق الاجتماعى والظلم الداخلى . وصراعا قوميا بين امة ظالمة وامة مظلومة ، او بين حضارة غالبة وحضارة مغلوبة ، او بين دولة قاهرة ودولة مقهورة ، أو بين الحق القومى والظلم الخارجى . وصراع ايديولوجيا عقائديا : بين نظرة كونية ونظرة كونية ، او فلسـفة كلية وفلسفة كلية ، أو عقيدة تاريخية وعقيدة تاريخية . صراعا بين الاقوياء والضعفاء ، عاناه وخاضه الانسان فى عصر الالهة والابطـال والملاحـــم

والاساطير ، وفى عصر الانبياء والاديان السماوية والكتب المقدسة ، وفى عصر القوميات والدول القومية والامم الناهضة ، وفى عصر الايديولوجيات الكونية والعقائد الكلية والجماهير الثائرة • وقد اختلف الصراع فى وسائله واسبابه وميادينه ودوافعه واهدافه واشكاله • ولكنه دام واستمر • وسيستمر ويدوم ما استمر ودام الانسان • تلك هى الحقيقة • وكل ما عداها باطل وقبض ريح • ولكن الصراع ليس حقيقة فقط ، بل ضرورة ايضا •

يمثل الصراع حقيقة وضرورة ، فى وقت واحد وعلى حد سواء ، أو حقيقة ضرورية • لو لم يوجد الصراع ، لوجب ان يوجد • ولو حل السكون محل الصراع ، والتماثل محل الاختلاف ، والتجانس محل التناقض ، لساد الانحطاط والفناء والعدم • الوحدة الحقيقية الحية الخلاقة للاشياء ، هى وحدة التناقض لا وحدة التجانس ، وحدة التكامل لا وحدة التماثل •

ولعل اعظم تقدم حققه العقل العصرى الحديث ، يبرز واضحا فى احلاله فلسفة الصيرورة محل فلسفة الكينونة ، وفكرة النسبى محل فكرة المطلق ، والتغير محل السكون[٢٨] • الحق انتصار على الباطل فى صراع انسانى • يعرف الحق بانتصاره ، كما يعرف الباطل باندحاره • ولولا ذلك ، لما استطاع الانسان ان يميز الحق من الباطل • ويل للانبياء الكذبة من الحرية • ويل للمبادىء المزورة والعقائد الباطلة من الحرية • لان الحرية هى الصراع ، ولان الصراع امتحان صارم لا يرحم للعقائدوالمبادىء وللقيم والنفوس واقدار الرجال ، ونهايته الوحيدة هى : غالب ومغلوب •

يطالب الانسان بالحرية ، لانه يطالب بالصراع • ويطالب بالصراع ، لانه يطالب بالتقدم • لا صراع بلا حرية • ولا تقدم بلا صراع • تلك هى الصورة الحقيقية للوجود الاجتماعي وللارتقاء الانساني كما يرسمها التاريخ فى جميع العصور وفى جميع الحضارات • وهى صورة تعود فى اصلها

ومجملها وتحليلها الاخير ، وفى ملامحها العامة وخطوطها العريضة واتجاهاتها الاساسية ، الى المعلم اليونانى القديم والحكيم العظيم (هيراقليطس) [٢٩] ، الذى اتخذ من فكرة ( الصراع ) مركزا للثقل وقطبا للرحى فى تعاليمه الفلسفية ، فى مرحلة مبكرة ساذجة بدائية من التاريخ الانسانى • وليس من المفارقات أو الصدف ، كما يعتقد الباحث ، ان يكون ( هيراقليطس ) ، تماما مثل ( ابن الطقطقى ) و ( ابن خلدون ) [٣٠] فى عصرين تعاقبا على الوطن العربى والعالم الاسلامى مشرقا ومغربا ، و ( ماكيافيلي ) [٣١] و ( هوبز ) [٣٢] فى عصرين لاحقين تعاقبا على العالم الاوربى المسيحى فى ايطاليا وبريطانيا على التوالى ، قد عاش فى عصر من عصور العالم اليونانى القديم قبل الميلاد ، سادته القلاقل السياسية ، والفتن الداخلية ، والمعارك الدموية • فعاصر الحرب الطاحنة التى نشبت بين اليونانيين والفرس ، من جهة ، كما عاصر التمزق الداخلى والتحول الاجتماعى الذى رافع انتقال المجتمع اليونانى من مجتمع عشائرى ارستقراطى الى مجتمع ديموقراطى ، من جهة اخرى [٣٣] • وتلك هى حقيقة التطور التاريخى وحقيقة الارتقاء الانسانى ، حقيقة الصراع الفكرى للمبادىء والعقائد ، والصراع القومى للامم والحضارات ، والصراع الاجتماعى للجماهير والاجيال •

ويتفق الباحث مع الرأى المألوف الان الذى يعتبر السياسة علما موضوعيا ، قائما بنفسه ، مستقلا عن الاعتبارات الاخلاقية والعاطفية والدينية ، فى وقت واحد وعلى حد سواء ، الا بقدر ما تكون تلك الاعتبارات من الحقائق الموضوعية والقوى الفاعلة والطاقات الدافعة • ويعنى ذلك ، ان السياسة تدرس كما توجد فى الواقع ، وكما تمارس بالفعل ، فى الاجتماع الانسانى والتطور التاريخى ، وليس كما يتوهمها الانسان أو يتمناها أو يريدها أو يتصورها • ولكن الامر كان مختلفا فى التاريخ • لان السياسة لم تعتبر علما ، ولم تستقل عن الاعتبارات الاخرى ، الا فى وقت لاحق

متأخر ، وبعد جهد شاق وتطور طويل .

ويعتقد الباحث ان ابن الطقطقى فى كتابه ( الفخري ) ، يمكن ان يعتبر من الرواد الاوائل والآباء الروحيين للسياسة كعلم مستقل بهذا المعنى ، هذا اذا لم يتأكد انه الرائد الاول والاب الاقدم فى العالم اجمع على الاطلاق . لانه اختط منهجا جديدا ، وبدأ تطورا طليعيا ، فى تعامله مع السياسة ، يختلف تماما عن الفكر الفلسفي اليوناني الذى ربط السياسة بالمبادىء الاخلاقية ربطا عضويا وثيقا فى العالم القديم ( افلاطون وارسطو ) ، كما يختلف تماما عن الفقه الاسلامى الديني الذى ربط السياسة بالاحكام الشرعية ربطا عضويا وثيقا فى العصر الوسيط ( الماوردي والغزالي وابن تيمية وابن جماعة ) . ولكن ابن الطقطقى اكتفى بالملاحظات التجريبية والآراء الشخصية والدروس العملية ، ولم يقدم تفسيرا سببيا دقيقا ، وتحليلا محددا ، ونظاما متكاملا . وتلك هي المهمة الفكرية والرسالة التاريخية التى تولاها وحققها ابن خلدون فى مقدمته . وقد نسج ( ماكيافيللى ) على منوالهما ، فى وقت لاحق متأخر ، فى العالم الاوربي الغربي فى العصر المسيحي الوسيط ، فناله ما ناله من تجريح وتعريض وتشهير . لانه عامل السياسة كعلم مستقل ، فى عصر متعصب تعصبا أهوجا طائشا ، اعتنق النفاق ايمانا وموقفا ومنهجا واسلوباً ، وجمع بين الاعتبارات السياسية والاعتبارات الاخلاقية والدينية على الصعيد النظري ، وفصل بينهما على الصعيد العملي ، وتظاهر بالالتزام فى العلم ، ومارس شيئا آخرا مختلفا تماما فى التطبيق . وتلك هي حقيقة ايطاليا في عصره ، الحقيقة التى وصفها وصفا واقعيا صريحا ودقيقا ، واستوعبها استيعابا كاملا بعقله الجبار وذهنه المتوقد ، عصر سيزاربورجيا واخته لوكريتشيا ، وعصر الدسائس والمكائد والاغتيالات السياسية ، والرمال المتحركة للاقدار الانسانية المتبدلة ، والمفاجئات المذهلة المثيرة ، والتقلبات

ويمكن للباحث ان يشبه العلاقة التاريخيـــة بـين ( ماكيافيلـلي ) و ( توماس هوبز ) بالعلاقة التاريخية بين ابن الطقطقى وابن خلدون كمـا تقدم • ولكن الباحث لم يستطع ان يجد دليلا واحدا عـلى وجود علاقة فكرية مباشرة أو غير مباشرة بين ابن الطقطقى وابن خلدون من جهة ، وبينهما معا وماكيافيللي من جهة اخرى•وقد قارن الباحث بين ابن‌الطقطقي وابن خلدون وماكيافيللي • ولاحظ وجود اوجه عديدة للشبه • ولـكنه لاحظ كذلك ان ابن خلدون وماكيافيللي اقرب الى بعضهما ، منهما معاً الى ابن‌الطقطقى • وسيظهر ذلك تفصيلا وبرهانا من بحث جديدكامل مستقل عن ابن الطقطقى ، وكتابـــه ( الفخري فى الآداب السلطانيـة والدول الاسلامية ) ، وفكره السياسى فى ضوء واقعه التاريخي ، يأمل الباحث أن يخرجه الى النور قريبا • ويعتقد الباحث ان ما تقدم يمكن أن يؤدي الى فهم البحث المذكور فهماً أدق واكمل واوضح واصوب •

## الملاحظات والهوامش

(١) الاستراتيجية وتاريخها فى العالم • تأليف ب • هـ • ليدل هارت • بالانكليزية اصلا • ترجمه الى العربية عن الفرنســية : الهيثم الايوبي • دار الطليعة • بيروت • الطبعة الاولى ١٩٦٧م • ص ٤١ • والمعنون فى النسخة الانكليزية الاصلية : « الاستراتيجية : الاقتراب غير المباشر » • طبعة فاربر وفاربر • لندن سنة ١٩٦٧م • ص٢٣٠ •

(٢) الفخري فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية • راجعـه ونقّحه محمد عوض ابراهيم وعـلي الجارم • الطبعة الثانيـة • مطبعـة المعارف • القاهرة • سنة ١٩٣٨ م • وتوجد طبعة أقدم زمنياً ، حققهـا ديرنبورج وترجمها الى الفرنسية • باريس ١٨٩٥ م • وتحتوي على سيرة تفصيلية للمؤلف • كما توجد ترجمـة انكليزية كاملة وجيدة وحديثـة نسبيا تولاها ويتينج • لندن ١٩٤٧م • وقد ولد ابن الطقطقى في الحلة بالعراق سنة ١٢٦٢م • فى عائلة شيعية عربية عريقة • وفرغ من تأليف الفخري في الموصل سنة ١٣٠٢م •

(٣) ايام لها تاريخ • تأليف : احمد بهاء الدين • القاهرة ١٩٥٤م المقدمة • الصفحتان ١ – ٢ •

(٤) المصدر السابق • ص ١ •

(٥) نفس المصدر السابق •

(٦) المصدر السابق نفسه •

(٧) المصدر السابق • ص ٢ •

(٨) تاريخ الفلسفة السياسية اليونانية• تأليف : السير ارنست باركر ، الاستاذ بجامعة اكسفورد فى بريطانيا • ويعتبر باحثا كبيرا فى الدراسات الاغريقية القديمة • طبعة مثوين باللغة الانكليزية • لندن ١٩٦٠ م • ص ١٦ •

(٩) انظر للمزيد من الحقائق والتفاصيل : التجربة ، والعقل ، والايمان : عرض للفلسفة والدين • تأليف : يوجين كاريت بيويكس ، وآخرون •• طبعة هاربر باللغة الانكليزية • نيويورك بالولايات المتحدة الامريكية ١٩٤٠ م • الصفحتان : ٢٠٦ – ٢٠٧ •

(١٠) دراسات فى المدنية الاسلامية • تأليف : السير هاملتون جيب ، الاستاذ بجامعتي اكسفورد فى بريطانيا وهارفارد فى امريكا • ويعتبر مستشرقاً كبيراً • طبعة روتليدج وكيغان بول باللغة الانكليزية • لندن ١٩٦٢ م • انظر البحث المعنون : النظرية السنية فى الخلافة • ص ١٤٢ •وتوجد ترجمة عربية للكتاب المذكور عنوانها ( دراسات في حضارة الاسلام ) ، تولاها الدكاترة احسان عباس ومحمد يوسف نجم ومحمود زايد • دار العلم للملايين • بيروت • سنة ١٩٦٤ م • ص ١٨٦ • وقد اعتمد الباحث على الطبعة الانكليزية الاصلية ولم يتقيد بالترجمة العربية •

(١١) راجع للمزيد من الحقائق والتفاصيل : الماوردي ، وكتابه « الاحكام السلطانية والولايات الدينية » وفكره السياسي فى ضوء واقعه التاريخي • تأليف : حازم طالب مشتاق • يقع البحث فى اربعين صفحة• المطبعة العربية • بغداد ١٩٧٠ م • وانظر ، بوجه خاص ، الصفحات ٣ – ٥ ، ٨ – ٩ ، ١٤ – ١٥ ، ١٧ – ١٨ ، ٢٦ – ٣١ •

(١٢) جيب فى كتابه المذكور سابقاً • ص١٤٢ • الترجمة العربية • ص ١٨٧ •

(١٣) نفس المصدر • الصفحتان ١٥٤ – ١٥٥ • الترجمة العربية • ص ٢٠٣ •

(١٤) المصدر السابق نفسه • راجع البحث المعنون : نظرية الماوردي فى الخلافة•ص ١٦٢ • الترجمة العربية •ص٢١٢•

(١٥) نشبت الحرب البيلوبونيزية سنة ٤٣١ ق • م • بين آثينا

والمدن المتحالفة معها واسبارطا والمدن المرتبطة بها ، من جراء الصراع للسيادة على العالم اليوناني القديم · وانتهت سنة ٤٠٤ ق · م · بانتصار اسبارطا انتصارا نهائياً حاسماً · وللمزيد من التفاصيل والحقائق ، راجع : تاريخ العالم القديم · تأليف : الدكتور جورج ويليس بوتسفورد، استاذ التاريخ بجامعة كولومبيا فى امريكا · طبعة شركة ماكميلان · نيويورك ١٩١٤م·الصفحات ٢١٩ ــ ٢٣٩·وتاريخ الحرب البيلوبونيزية· تأليف المؤرخ اليوناني القديم الذي عاصر الحرب ، ثيوديداديس · ترجمة جديدة عن الاصل اليوناني بقلم ريكس وارنر · طبعة بنغوين · لندن · الطبعة الاولى ١٩٥٤ م · واليونان : من ظهور اليونانيين حتى سنة ١٤م· تأليف : شوكبرك · طبعة اونوين باللغة الانكليزية · لندن ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩١١ م · الصفحات ١٦٨ ــ ١٩٧ ·

(١٦) تاريخ الفلسفة السياسة ( اليونانية القديمة ، والمسيحية الوسيطة ، والاوربية الغربية الحديثة ) · تأليف : جورج سابين ، استاذ الفلسفة بجامعة كورنيل فى امريكا · طبعة هنرى هولت وشركاه ، باللغة الانكليزية · وهى الطبعة المنقحة · نيويورك ١٩٥١م · ص٤٣ ·

(١٧) نفس المصدر السابق ·

(١٨) المصدر السابق نفسه ·

(١٩) نفس المصدر ·

(٢٠) المصدر السابق نفسه · ص ٤٤ ·

(٢١) نفس المصدر · راجع الصفحات ٣٣١ ــ ٣٣٥ للمزيد من الحقائق والتفاصيل ·

(٢٢) المصدر السابق · ص ٣٣٥ ·

(٢٣) نفس المصدر · ص ٣٣٦ ·

(٢٤) المصدر السابق نفسه · ص ٣٣٨ ·

(٢٥) سابين · ص ٦٢١ ·

(٢٦) المصدر السابق نفسه · ص ٦٢٢ ·

(٢٧) نفس المصدر · ص ٦٢٣ ·

(٢٨) اخذ الباحث هذا المعنى من قول مأثور منسوب الى المفكر الفرنسى ( رينان ) · انظر : شبنجلر · تأليف : الدكتور عبدالرحمن بدوي · القاهرة · الطبعة الثانية · سنة ١٩٤٥م · ص١ ·

(٢٩) راجع : الفلسفة اليونانية من طاليس الى افلاطون · تأليف : جون برنيت · طبعة ماكميلان باللغة الانكليزية · لندن · سنة ١٩٦٤م ·

ص ٤٨ · ويوشك الباحث أن يفرغ من بحث جديد كامل مستقل عن الفيلسوف المذكور · ويأمل أن يخرجه الى النور قريباً ·

(٣٠) راجع : تاريخ العلامة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ) ·

المقدمة · المجلد الاول · الطبعة الثانية · دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر بيروت ١٩٦١م·وقد ولد ابن خلدون بتونس سنة ١٣٣٢م· وتوفي سنة ١٤٠٦م ·

(٣١) نيكولو ماكيافيللي · مفكر سياسى ايطالى عاش فى عصر لنهضة · ولد سنة ١٤٦٩م · وتوفى سنة ١٥٢٧ م · وساند الملكية الاستبدادية المطلقة · ويعتبر من الرواد الاوائل والآباء الروحيين للفكرة القومية والوحدة الايطالية · انظر كتابه : ( الامير ) · بالانكليزية · ترجمه عن الايطالية لويجي ريجي · ظهرت الطبعة الاولى سنة ١٩٠٣ م · ونقحها ي · ر · ب · فينسنت · وتولت طبعها مطبعة جامعة اكسفورد سنة ١٩٣٥م · واعادت طبعها المكتبة الامريكية الجديدة فى سلسلة كتب منتور سنة ١٩٥٢م ·

(٣٢) توماس هويز · مفكر سياسى انكليزي · عاصر الحرب الاهلية التى نشبت بين انصار كرومويل وانصار الملك جارلس الاول · وساند المعسكر الملكي والنظام المطلق · درس الفلسفة والسياسة بجامعة اكسفورد فى بريطانيا · ولد سنة ١٥٨٨م · وتوفى سنة ١٦٧٩م · انظر كتابه : ( ليفايثان ) · بالانكليزية · ظهرت الطبعة الاولى سنة ١٦٥١م · واعادت طبعها مكتبة ( ايفري مانز ) فى لندن سنة ١٩٤٩م ·

(٣٣) راجع : الفلسفة عند اليونان · تأليف : الدكتورة اميرة حلمي مطر · دار ومطابع الشعب · القاهرة سنة ١٩٦٥م · ص٤٦·

ـ انتهى ـ